نظرة بنيوية على الأنثروبولوجيا ،
ليفي ستروس نموذجا

بقلم: بن ويس فاطمة

ملخص :

لقد شهدت الدراسات اللغوية الحديثة نقلة نوعية ،كان من تبعاتها ظهور مناهج علمية متفرعة عنها،و من ضمن هذه المناهج «البنيوية « ،التي عرفت امتدادا في الحقول المعرفية المتنوعة ، و من بين هذه الحقول حقل «الأنثروبولوجيا».

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مدى ارتباط البنيوية بالأنثروبولوجيا مجسدة عن طريق «كلود ليفي ستروس»،فتوضح كيف استفاد هذا العالم من الإجراءات التي جاءت بها ،وكيف حاول تطبيقها على الأسطورة و نظام القرابة و غيرها من المجالات الأنثروبولوجية.

تمهيد :

كان من أهم الانجازات التي قدمتها البنيوية أنها استطاعت أن تحطم جدار الانغلاق الذي أحاطت به نفسها ، فلقد تجاوزت حدود اللسانيات و كذا حدود البنيوية إلى مجالات معرفية أخرى،

ومن ضمن هذه الحقول حقل «الأنثروبولوجيا» الذي سرعان ما برز العالم «ليفي ستروس» يدافع عنه ، و يؤسس لنفسه منهجا أنثربولوجيا بنيويا .

ليفي ستروس عالم يهودي ، بدا حياته في دراسة «الاثنيات» ، لكن مكالمة هاتفية سوف تغير حياته و تجعله يخوض تجربة حياتية أخرى ، إذ ذات صباح من سنة 1934،تلقى (عرضا من مدير دار المعلمين العليا بباريس العمل كأستاذ علم الاجتماع في جامعة ساو باولو البرازيلية)1،فكانت هذه المكالمة بداية المشوار الذي قاده إلى أدغال البرازيل ، ليتعرف على القبائل هناك ،و يدرس عاداتها وتقاليدها و الطقوس المختلفة التي تقوم بها .

لقد ألقى ليفي ستروس مجموعة من المحاضرات ،ولكنه لم يكن متشبعا بالأفكار التي تواجدت آنذاك ، إذ أن شغفه بالجيولوجيا منذ الصغر ،و بالماركسية ،وعلم النفس ودراسته للقانون كذلك جعله يدرك مواطن الضعف في الثقافات السائدة ، فكان أن أبعد الفلسفة الوجودية و الظاهرية ،

و بالتالي أصبح أول (دارس الأنثروبولوجيا يجرؤ على الشك في سمو المكانة الفكرية للفلسفة ،و قد ساعده على ذلك ما تلقاه من درس للفلسفة و للقانون مما دفعه إلى التحدي الواثق لدعاوي الوجودية)2.

وكذلك كان الأمر بالنسبة لمتصدر الدراسات و المهيمن عليها و هو التاريخ ،إذ نظر إليه نظرة أخرى مختلفة عما كان سائدا

،إذ أن التاريخ لديه (يعاد تأسيسه كلما حكيت أسطورة أو استرجع الماضي ،و بدل أن يكون التاريخ سلسلة من الأحداث «الموضوعية» المرتبطة بمرحلة أو بمراحل معينة ، يغدو التاريخ حضورا آنيا من تفاعل الأبنية العقلية الذي يقع»لحظة» بعينها ،و ما دام الماضي قد أصبح بعض الحاضر على هذا النحو ، يسقط ليفي ستروس من حسابه النظريات التقليدية عن التقدم و التطور)3.

ولقد ألف ليفي ستروس العديد من المؤلفات كانت هي واجهته للقراء ،من ضمن هذه الكتب «الطوطمية»، «الميثولوجيات» ،»النيئ و المطبوخ» ، «من العسل إلى الرماد» « آداب المائدة» ، «الإنسان العاري» و غيرها من المؤلفات .

وفي كثير من الأحيان كان يعمد في كتاباته إلى إيراد مقتطفات من حياته ،وكأنه العالم الذي يخلط ما بين الدراسة والمذكرة ، فمثلا نجده يبين بداية مشواره فيسرد قائلا : (تقرر مصيري المهني ، يوم أحد خريف 1934في الساعة التاسعة صباحا ،على اثر مكالمة هاتفية من سلستيان بوجليه ،

وكان عندئذ مديرا لدار المعلمين العليا ، و يقابلني منذ سنوات (بجفاوة متحفظة)و مترفعة نوعا ما ..بادرني قائلا أما زالت لديك الرغبة في الاشتغال بالأثنوغرافيا ؟بالتأكيد – إذا رشح نفسك أستاذا لعلم الاجتماع في جامعة ساو باولو ،إن ضواحيها تعج بالهنود ،وستخصص لهم نهايات الأسبوع)4.

إذا فكتب ليفي ستروس ،تبدو للوهلة الأولى نموذجا مركبا من التنظيرات والدراسات ومقتطفات من حياته ، فكتبه (تخلط بين الذكريات والتفسيرات،بين الملاحظة والتأمل ،بين الحقيقة و التداعي الحر،قد عملت على دعم نظرية ليفي ستروس عن القرابة في كتابه «الأبنية الأولية للقرابة» (1949)، كما أسهمت في تقبل منطلقه الخاص بالأسطورة»الدراسة البنيوية للأسطورة (1955)،

و لقد أضفت هذه الأعمال بدورها-قدرا من المكانة العلمية عن الأفكار التأملية التي كانت أساسا انطلقت منه كشوف الفكر الوحشي (1962)و كتاب «أسطوريات»بمجلداته الأربعة (1964-1971)5

ولقد أدت الظروف المحيطة بليفي ستروس أن يغادر البرازيل (بسبب سياسة الحكومة المعادية لليهود)متوجها إلى أمريكا ،و لكنه كان يجهل بأن القدر يخبئ له مفاجآت أخرى ، فلقد التقى في أمريكا بالعالم اللغوي « رومان جاكبسون» ،و كان هذا اللقاء هو بداية تعرف «ليفي ستروس» بحقل اللغويات الذي بهر به و بالنتائج المحققة فيه، و كان من ثمرة هذا اللقاء هو تحليلهما لقصيدة «القطط» لبودلير .

و منذ تعرف «ليفي ستروس» على «ياكبسون» أخذ يشق طريقه إلى تطعيم حقل الأنثروبولوجيا بالتنظيرات اللغوية ، وخاصة ضمن ما جاء به المنهج البنيوي ،الذي ارتبط به ويرى ليفي ستروس أن البنية تتميز أولا و قبل كل شيء بطابع (النسق أو النظام، فالبنية

تتألف من عناصر يكون من شأن أي تحول يعرض لواحد منها أن يحدث تحولا في باقي العناصر الأخرى)6

و بهذا خالف مرة أخرى أقرانه من العلماء الأنثربولوجيين ، فراح يحلل المجالات الأنثروبولوجية بوجهة بنيوية ،فوجدت أواصل الالتقاء بينه و بين البنائيين ، فهم متفقون في كون البناء ككل (متكامل يتألف من عدد من العناصر الأساسية المتداخلة المتفاعلة و المساندة ،بحيث لا يمكن تغيير أي عنصر منها دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير بقية العناصر ، و لكنه يختلف معهم في كل ما عداه ، سواء فيما يتعلق بمستوى التحليل و التجريد ، أو ميدان الدراسة و البحث)7، و قد يكون التباعد راجع إلى الاختلاف في المجالات،لكن المنطلق اللغوي واحد و هو جامع لهم جميعا .

كانت نظرة «ليفي ستروس « تكمن في أن الدراسات الأنثروبولوجية ليست مهمتها معرفة المجتمعات في حد ذاتها و(إنما اكتشاف كيفية اختلافها عن بعضها البعض ،فمحورها إذن مثل علم اللغة هو القيم الخلافية)8 وهذا يعني أنه لم يحصر الأنثروبولوجيا في مجالها الضيق ، وإنما زاوج ما بين التحليل اللغوي ، و كذا ربطها بسياقها الثقافي .

انطلق «ليفي ستروس»متسلحا بما جابت به البنيوية ليتجه صوب الحقول الأنثروبولوجية و كان هدفه من البداية أن يكشف النظام الخفي الكامن وراء الظواهر الموجودة ،إذا (فالبنائية عند ليفي ستروس تهدف إلى الكشف عن «الصيغ الكلية» التي يكمن وراء الفكر الإنساني، بصرف

النظر عن اختلافات الزمان و المكان وتباين المجتمعات والثقافات ،و هذا يتطلب بالضرورة إقامة النماذج التي تساعد على فهم هذه الأحداث)9.

فليفي ستروس جعل هدفه هو الكشف عن النظام الكلي الغير المتجلي، ومن جهة أخرى ، كان ليفي ستروس سباقا إلى اتخاذ المنهج البنيوي للكشف عن هذا البناء الخفي ،فالجديد الذي جاء به هو (استخدام منهج «التحليل البنيوي» من أجل الكشف عن أصالة الأثنولوجيا بوصفها علما يزيح النقاب عن الطبيعة اللاشعورية للظواهر الجمعية)10

ومن أهم المصطلحات التي جاء بها ،مصطلح «النماذج»modèles التي لا ترتبط بالواقع العيني ، و إنما يبنيها الباحث انطلاقا من الواقع .

ومن العلوم التي كانت قريبة من نفس ليفي ستروس علم النفس بالتنظيرات التي جاء بها فرويد ، و كان أهم ما أخده ليفي ستروس من هذا العلم هو فكرة اللاشعور، إذ أن أبرز(ما تعلمه ليفي ستروس من نظرية التحليل النفسي هو إدخال اللاشعور الذي هو بمثابة حجر الزاوية في أبحاثه ، و الحقيقة أن اللاشعور في تحوله إلى الأنثروبولوجيا يفقد لونه الفرويدي (إذ لا علاقة له بدوافع غريزية)11

إذا فلقد وجد ليفي ستروس في علم النفس ما لم يجده في الأنثروبولوجيا ،و لقد وجد فرويد خلال دراساته أن اللاشعور موجود ،و هذا الوجود ليس عشوائي ،و إنما له بنية.

وعلى الرغم من أن ليفي ستروس أخد أفكارا من فرويد الا أن الهدف كان مختلفا لديهما، إذ أن فرويد (يستغل الأنساق الرمزية

للأحلام،ليعيد بناء التاريخ الفردي ،فان ليفي شتراوس يهدف إلى فض مغالق الأنساق الرمزية للأسطورة ، ليعيد بناء التاريخ الثقافي)12،ففرويد يركز بشكل أساسي على الفرد ،في حين أن ليفي ستروس يتجاوزه إلى البناء الثقافي و الجمعي .

1-**تحليل الأسطورة**:لقد حاول ليفي ستروس أن يجسد الآليات التي جاءت بها البنيوية ،ضمن إطار الأسطورة،و هو لا يمثل أول عالم يعمد إلى الموروث،فلقد اتجه بروب قبله إلى الحكاية الشعبية،فالأسطورة تعتبر أقدم موروث يجسد فكر الإنسان القديم (النيوليتي) كما يسميه.

بداية اتخذ ليفي ستروس لنفسه مبدءا أنه(ما هو مشترك بين الثقافات لا يهتدي إليه بوضوح على مستوى الملاحظة،و إنما على مستوى البناء العقلي،فالبناء هو الذي يشمل العنصر الكلي الشامل في الثقافة البشرية ، وهذا البناء خفي،لا يوجد على السطح الخارجي للظواهر أبدا،و إنما يكشف عقليا)13، فليفي ستروس لم يكن همه و هو يحلل الأسطورة أن يكشف مدى ارتباطها بالفكر البدائي أو بمرجعياتها الاجتماعية،و إنما كان همه أن يبين ذلك الترابط الخفي الذي تجسده الأسطورة،و لقد عمد في تحليله إلى جمع كم هائل من الأساطير ليصل إلى بنائها .

ومن جهة أخرى درس الأسطورة من ثلاث نواحي (من اليسار إلى اليمين ،من الأعلى إلى الأسفل،من الأمام إلى الوراء(أو العكس)14،

هذه التقنية الثلاثية الأبعاد إن جاز لنا تسميتها كان هو من السباقين إلى استعمالها على الأسطورة.

وبحكم أنه كان متأثرا بما جابت به البنيوية، فلقد قسم الأسطورة إلى وحدات صغرى سماها(المثيمات)mythèmes ،فهذه الوحدات الصغرى في الأسطورة هي بمثابة الفونيمات التي تتكون منها الكلمات.

ولقد وضح في كتابه «الأنثروبولوجيا البنيوية» الطريقة التي استخدمها لدراسة الأسطورة ، فيصرح قائلا(استخدمنا حتى الآن التالية :تحلل كل أسطورة تحليلا مستقلا ، مع محاولة التعبير عن تتابع الأحداث بأقصر الجمل الممكنة،ثم تدون كل جملة على بطاقة تحمل رقما يطابق مكانها في الحكاية،

ويلاحظ عندئذ كل بطاقة تتألف من تخصيص محمول لموضوع ،بعبارة أخرى كل وحدة مؤلفة كبيرة لها طبيعة علاقة)15،فهو حاول أن يستخرج البنى الكبرى و كذا البنى الصغرى و هي المتعلقة بزمنية الأحداث من حيث الاطراد و التتابع ، و يبدو أن العمل الذي قام ليفي ستروس لا يبتعد كثيرا عن العمل الذي قام به «بروب»،فليفي ستروس حلل الأسطورة معتمدا على العلاقات التي تجمعها،و معنى هذا أن لهذه الأسطورة نظام شامل من العلاقات.

وعلى الرغم من أن ليفي ستروس كان قد توصل إلى قانون تعتمد عليه الأسطورة و هو ((f×(a):fy:f×(b):fa1(y))16؛الا أن هذا القانون بقي مبهما ،إذ لم يحاول ليفي ستروس توضيحه للقارئ ، بل على العكس ،نوه إليه فقط ،لذلك لم يتوصل العلماء إلى كشف لغز هذا القانون.

وضمن دراسته للأسطورة توصل هذا العالم إلى قناعة بأن الفكر البدائي لا يختلف أبدا عن الفكر المتحضر ، بل هما متشابهان ،إذ أنه (يرفض رفضا قاطعا أن يلحق صفة البدائية بالشعوب التي اصطلح على نعيها بهذه الصفة ،ذلك أن مثل هذه التسمية في رأيه خاطئة ومضللة وبعيدة كل البعد الشعوب القديمة)17 ،ولا أوضح من الأسطورة التي استطاعت أن تبقى مجسدة وحاضرة ،رغم تعاقب العصور وهذا ما يثبت أن الفكر البدائي كان متحضرا .

ودائما يبدو جليا عنده ذلك الارتباط باللغة (فالأسطورة تشكل جزء لا يتجزأ من اللغة ،نعرفها بالكلام وتتعلق بالكلام)18 ،و هذا يبدو منطقيا باعتبار أن البداية كانت أصلا لغوية .

2- ليفي ستروس ونظام القرابة: من ضمن المجالات الأنثروبولوجية التي عالجها «ليفي ستروس «أيضا نظام القرابة ،وهي عادة تتعلق بالروابط التي تدور في فلكها جميع الأسر والعائلات، فهناك أواصل الدم والمصاهرة وغيرها من العلاقات، ضمن هذا الإطار جعل «ليفي ستروس» يقترب أكثر من هذا الحقل ،ووجد أنه بلا ريب يمكن أن يدرسه لغويا ،إذ أنه عندما (يدرس العالم الاجتماعي مسائل القرابة شأنها (و بعض المسائل الأخرى بلا ريب) ،يجد نفسه في وضع صوري شبيه بوضع العالم اللغوي الفونولوجي ،ذلك أن حدود القرابة شأنه شأن الوحدات الصوتية ، هي عناصر ذات دلالة ،و هي مثلها ،لا تكتسب هذه الدلالة ما لم تندمج في أنظمة ، ثم إن(أنظمة القرابة) مثل (الأنظمة

الفونولوجية)، يعدها العقل على مستوى الفكر غير الواعي)19، إذ أن أواصل القرابة لا تبدو ظاهرة للعيان ،إنما هو بناء خفي ينصاع له كل فرد ،كما أن نظام القرابة يعتمد على الأفراد ، والأفراد مثل الكلمات ،ولا تكون الكلمات الا متراصة مترابطة ،كذلك القرابة بفعل الأفراد ،فنظام القرابة شبيه بنظام اللغة .

ومن خلال مزاولته للأنثروبولوجيا لاحظ هذا العالم أن العلاقات بين الأقارب ترد أساسا إلى مسالة تحريم الزواج (لذا احتلت هذه المشكلة مكانا بارزا في نظرية «ليفي-ستروس» كما أنها تمثل الهدية في أجلى صورها من حيث أنها لا تنص على تحريم الزواج بالأم أو الأخت أو الابنة يقدر ما تنص على ضرورة إعطاء الأم أو الأخت أو الابنة للآخرين)20، وفالعلاقات الأسرية وإن بدت أول الأمر متشابهة الا أنه يوجد اختلاف بينها ، إذ يميز «ليفي ستروس» بين أبنية أولية للقرابة و هي العلاقات التي تربطها صلة الدم و أخرى أبنية معقدة و التي لا تربطها صلة الدم .

و باعتبار أن هذا العالم انطلق من المنهج البنيوي ، فقد طبقه على نسق القرابة ، و هو شبيه إلى أقصى الحدود بنسق اللغة (لأنه لا يتحدد على مستوى الحدود termes، بل على مستوى أزواج العلاقات (كعلاقة الزوج بالزوجة، والأب بالابن،والأخ بالأخت، والخال بابن الأخت)21، ومن خلال هذه الثنائيات تتجلى العلاقات التي حصرها في الأب ، الابن ، الأخت ، الأخ .

ولاحظ هذا العالم أنه في نظام القرابة تبرز للعيان علاقة الخالية لذلك اهتم بها ،فوجد أنه (ليس ثمت حياة يمكن تصورها أو تحديدها دون المقتضيات الأساسية لبنية الخالية ،و هي من جهة أخرى مادة البناء الوحيد لأنظمة أشد تعقيدا ،نظرا لوجود أنظمة أشد تعقيدا أو بكلام أصح ، لأن -أنظمة القرابة تعد بدءا من هذه البنية الأولية التي تتكرر من خلال دمج عناصر جديدة)22

كما أنه دائما يركز على البناء ، فيرى أن العائلة (تقوم على ترتيب ثنائي :موجود (»)و غير موجود(-) في سلسلة من المزدوجات تتوزع ضمنها في تناقض مترابط (مثلما تتوزع العناصر الصوتية ضمن بناء اللغة) وكل فرد من العائلة يرتبط بسائر الأفراد إما بخط جانبي أو سلالي ،تماما كما ترتبط العناصر اللغوية ضمن نظام التنسيق (الجانبي بالنسبة لعلاقات الأفراد) أو نظام الانتقاء (الخط السلالي)23 ،إذ إن العلاقات تترابط وتتوحد مثلما تترابط العلاقات اللغوية .

ولقد حدد هذا العالم ثلاثة أنماط من التواصل و هي التواصل «لغويا «من خلال الشفرات اللغوية ،

ولقد كان (رومان جاكبسون) أثار هذا الجانب،والتواصل «بالمنافع «وهو يدخل ضمن مجال التجارة والاقتصاد وكذا التواصل «الجنسي «عن طريق الزواج .

كما وجد أن التواصل الجنسي مثله مثل التواصل اللغوي يعتمد على مرسل و مرسل إليه و مرسلة ،فان المرأة هي المرسلة في

النظام العائلي ،و قواعد الزواج ليست (سوى وسيلة لتأمين تداول المرأة ضمن المجموعة الاجتماعية ، أي استبدال نظام العلاقات السلالية ،و هو ذو أصل بيولوجي ،الا أن المرأة إشارة تختلف عن الكلمة / الإشارة بأنها تنتج كلاما و في الوقت نفسه تصلح بذاتها إشارة لمرسلات اجتماعية)24، فكما يتبادل الناس الكلمات ، تكون المرأة متبادلة ضمن قواعد الزواج ،وكان مصطلح (التبادل Echange)من المصطلحات التي بنى عليها ليفي ستروس نظريته .

من خلال هذه الدراسة المقتضبة ،يظهر جليا نجاح المنهج البنيوي ضمن الأنثروبولوجيا ،ولعل «ليفي ستروس «لم يكن ليتميز لولا ارتباطه بالبنيوية ، فلقد حقق نتائج سواء فيما يخص»الأسطورة «أو««نظام القرابة» ،ليس هذا فقط بل جعل يميز مابين الطبيعي ومابين الثقافي .

ومهما قلنا عن هذا العالم فلا يمكن أن نعطيه حقه، فلقد استطاع أن ينهض بالفكر البدائي

ويغير نظرة العالم له ، فكان بلا منازع المدافع عنه ،مخالفا سائر الأنثروبولوجيين في رؤاه و منهجه

و نتائجه ،فلقد برهن أن المنهج البنيوي ليس حكرا على المنهج اللغوي فقط ، بل بإمكان إدراجه ضمن المجالات المعرفية الأخرى ، و كان أن اتجه كذلك (لوي ألتوسير) إلى الماركسية ، و انتهج نفس

منهج «ليفي ستروس»و كذلك فعل «لاكان» في محاولة قراءته لتنظيرات فرويد.

فالبنيوية استطاعت أن تستحوذ على اهتمام حتى العلماء من حقول معرفية بعيدة نوعا ما عن الحقل اللغوي ،هذا على الرغم من أنه تواجد في الساحة من رأى في البنيوية ضيق الأفق باعتبار أنها لا تتجاوز النص،و لا تحاول أن تربط النص كبينة داخلية بسياقه الخارجي

المراجع :

[1]- عبد اللطيف الوراري ، ليفي ستروس الفيلسوف الذي أعاد الاعتبار للفكر البدائي ، مجلة إيلاف الالكترونية ،العدد 4533، نوفمبر 2009.

2- أديت كرزويل ، عصر البنيوية ، تر جابر عصفور ،دار سعاد الصباح ،ط1،1993،ص 51.

3- المرجع نفسه ، ص 51.

4 - كلود ليفي ستروس،مدارات حزينة ،تر محمد صبح ،دار كنعان ،ط1،2003،ص51.

5- أديث كرزويل ،عصر البنيوية ،ص36.

6 حسين فهيم ،قصة الأنثروبولوجيا ،فصول في تاريخ علم الإنسان،عالم المعرفة ،1986،ص176.

7- أحمد أبو زيد ،مدخل إلى البنائية ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية و الجنائية ،القاهرة ص40

8- صلاح فضل ،نظرية البنائية في النقد الأدبي ،»ط1،1998دار الشروق ،ص145.

9 – المرجع نفسه ، ص44.

910- زكريا إبراهيم ،مشكلة البنية ،أو أضواء على البنيوية،مكتبة مصر،ص09.

11- عبد الوهاب جعفر ،البنيوية في الأنثروبولوجيا و موقف سارتر منها ،دار المعارف،ط1980،ص27.
12 -أديث كروزويل ،عصر البنيوية ،ص47
13 - حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا،ص179.
14- كلود ليفي ستروس ،الأنثروبولوجيا البنائية ،تر مصطفى صالح ، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي ، دمشق ، 1977،ص258
15- المرجع نفسه ،ص.250
16- كلود ليفي ستروس ،مدارات حزينة ،تر محمد الصبح ،ص 69.
17- محمد مجدي الجزيري ،البنيوية و العولمة في فكر كلود ليفي ستروس ،دار الحضارة للطباعة و النشر ، ص 54.
18 ص-كلود ليفي ستروس ، الأنثروبولوجيا البنيوية ،ص246.
19 - المرجع نفسه ، ص 53.
20 - فادية فؤاد حميدو محمد ،البنائية عند ليفي ستروس ،دار المعرفة الجامعية ،ط2013،ص 42.
21- المرجع نفسه،ص90.
22- المرجع نفسه ، ص 71.
23- فاطمة طبال بركة ،النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون ،المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ،ط1،1993،ص 134.
24- المرجع نفسه ،الصفحة نفسها .